حكواتي زمان: بياع كلام، أم وزير إعلام؟

سهيل منيمنة

لولا أحاديث أبقتها أوائلنا   من الندى والردى لم يُعرف السَّمرُ

(الشاعر العباسي أبو تمام)



الحكواتي. زيتية بريشة الفنان التشكيلي اللبناني وائل حمادة

في مطلع خمسينيات القرن التاسع عشر، قام موظف حكومي ورحالة أمريكي يدعى "جون روس براون" برحلة إلى الشرق، ودون مشاهداته من خلال مقالات نشرت في مجلة "هاربر"، ثم جمعها في كتاب أسماه "يوسف: أو رحلة الفرنجي" أبصر النور سنة 1853، ويوسف هو المرشد والمترجم الذي رافقه في رحلته تلك. وقد استوقفت الكاتب شخصية الراوي أو "الحكواتي" كما نسميه، فخصص له الفصل الثاني والعشرين من كتابه بكثير من التفصيل، وقال أن إسمه "بن حسين"، كما قارن بين شخصيته وما ألفه ممن تناول القصص الشعبي في بلاده. من هذا الفصل قمت بترجمة النص التالي وعرضه نظراً لأهميته. يقول الكاتب:

" عندما لا يقرأ الناس الا قليلاً، فإنهم، إلى حدٍّ ما، يعوّضون هذا النقص بالتحدث والاستماع كثيراً. هذا هو الحال خاصة عند الشرقيين. وفي ظل التوزيع المحدود للصحف، وغياب كتب تواريخ الحروب والمقالات الفلسفية والإنسانية وكتب الرحلات، فالبديل هو رواة محترفون للقصص والروايات. وهذا يكون من خلال رجال دأبهم وعملهم هو التعامل مع التقاليد أو الخيال. لا يوجد في الشرق كله شخصية أهم،أو شخص له هذا التأثير الكبير على الرأي العام مثل الراوي. إنه جريدة متنقلة وتاريخ حيّ ومقال يتنفس وكتاب شخصي للرحلات يشكّل مخزونه من المعرفة على مبادئ تصرفاته الذاتية. على هذا النحو ونظراً لكونه وكيلاً مسؤولاً، فإنه يكسب ثقة المجتمع ويتمتع بها ويستفيد منها إلى أقصى حد. فكلما كانت قصصه أكثر روعة، زاد ت الثقة بها؛ وكلما كان هجاءه السياسي عنيفاً، زاد التحدث عنه؛ وكلما كانت نظرياته وأمثاله غير مفهومة، كانت فلسفته أعمق. إنه دائماً شخصية مشهورة لا غنى عنه في كل تجمّع. يستمع إليه أعظم الباشاوات باهتمام عميق، فالأخلاق التي يشير إليها والحكايات التي يرويها تجد طريقها حتى إلى حرم الحريم المقدس، وفي أعلى الدوائر وأدنى المستويات. يصدّق الجميع حكاياته بشغف: فالرجال الذين استمعوا لسنوات إلى نفس القصص ونفس النكات، يستمرون في الاستماع لسنوات أخرى بسعادة لا تنقص، ودائماً يصفقون في نفس المواقف ويضحكون على نفس التلميحات الذكية والطريفة."



بن حسين كما رسمه براون

يقول المؤرخ الدكتور زكريا الغول أن شخصية تعبر عن مظاهر التراث البيروتي، وهي ظاهرة عربية بدأت مع إستراحة محطات القوافل وشعراء القبائل، ثم مع القصاصين والنسابين الذين إتخذوا من المساجد مقراً. ومن أشهر من عني بالقصص الدينية كان "تميماً الداري".وفي زمن الحكم الأموي تحولت قصور الخلفاء الى مجاس تعج برواة الشعر والمحدثين والنسابين . وتميل أغلب الأراء الى أن إزدهار دور القصاصين والأخباريين والحكواتية يعود الى زمن الخليفة الفاطمي العزيز بالله (976م -996م)، حيث خصص راتباً للقصاصين والحكواتية، كما أمرهم بوضع القصص الشعبية على طبقات متتابعة، بغية إلهاء الناس وصرفهم عما يدور داخل قصور الحكم. تطورت حرفة الحكواتي وقد إضيف إليها الكثير من المبالغات والأخبار والحكايات، حتى تحولت الى ما يشبه الأساطير الشعبية. ثم إنتقلت من القاهرة الى بلاد الشام ومدنها خاصة بيروت وطرابس وصيدا، وقد أصبح الحكواتي سبباً مرغوباً للتلسية والترفيه عن الناس في أحياء بيروت، وإرتبط إسمه بمن يحفظ الحكايات ويلقيها أمامهم عن ظهر قلب. أو يرويها من كتاب بين يديه، متوسلاً الحركات التمثيلية والإيمائية أحياناً. وكان يختار شخصيات عربية تنتمي في الغالب الى العصر الجاهلي، ليطرح من خلالها سيرة البطل العربي في حكاية تدور عادة حول القوة والشجاعة والحرية والتضحية والشرف. ومن أشهر الشخصيات التي كان يتناولها الحكواتي: عنترة بن شداد والزير سالم، كذلك كان الحكواتي يتلو قصص ألف ليلة وليلة وعلي الزيبق، ثم دخل في السياق " صلاح الدين الأيوبي" و"الظاهر بيبرس."



الحاج أسماعيل علي البيات، حكواتي بيروتي محترف يقرأ سيرة أبو زيد الهلالي في مقهى علي الشيخ

قرب مرفأ بيروت سنة 1967.

جرت العادة أن يبدأ الحكواتي في سرد حكاياته وقصصه، بعد الغروب أو العشاء، في أحد مقاهي بيروت، حيث يتحلق الجمهور حوله. وقبل أن يسرد قصته يورد مقدمة تعرف "بالدهليز" فيها نصائح هادفة، ثم يشرع بمتابعة ما قدمه في الليلة السابقة، لأنه كان يعتمد التوقف كل ليلة عند عقدة معينة من القصة، تتميز بالإثارة والتشويق ليتمها في أمسية الغد، على منوال شهرزاد مع الملك شهريار في قصص ألف ليلة وليلة، وبذلك يضطر السامعون الى الحضور باكراً وبصورة دائمة لمتابعة أحداث القصة.



الحكواتي كما رسمه مصطفى فروخ

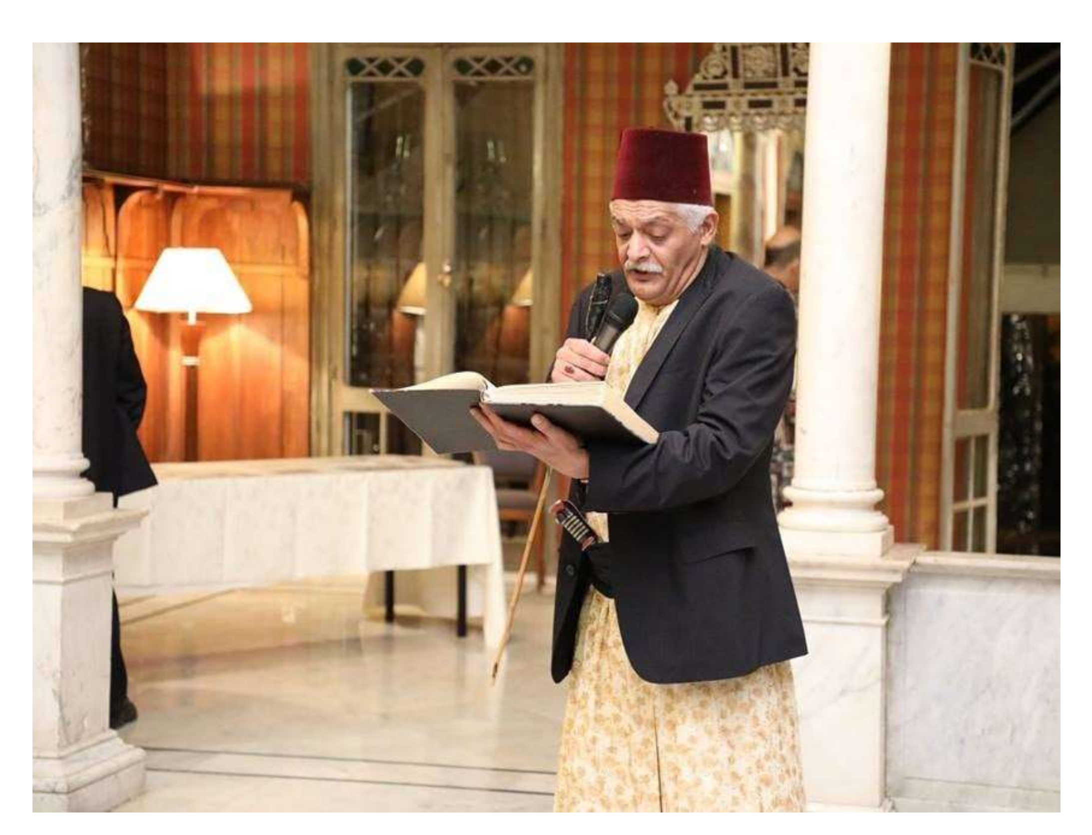
وفي تحليله لشخصية الحكواتي قال الباحث في التراث الشعبي الأستاذ زياد سامي عيتاني مما أرسله إليّ مشكوراً أن الحكواتي يمتلك مهارات وفنوناً لا يملكها إلا الممثّل المحترف، إضافة إلى الخيال الواسع والقدرة على التجسيد والفهم الدقيق والقراءة والتأويل والتفسير للقصص، وعدم روايتها وقراءتها بشكل مباشر، بل يضيف إليها ويفسر ويعطي الكثير من الدلالات، من خلال أدائه والتلوين في الصوت

والتحضيرات، ويمكنه استثارة همم الموجودين وجذب انتباههم وهم يحتسون الشاي أوالقهوة أو الأعشاب وإيقاف أي حوار جانبي.



الحكواتي كما رسمه الفنان اللبناني أسامة حديب

يلتفت جميع الحاضرين إلى الحكواتي، وهو يستعين بالأدوات التي تحمل مضامين ودلالات، منها الدروع والسيوف وبعض الكتب في تجسيد الموقف نفسه، مثلاً عندما يتحدث عن ملحمة لسيف بن ذي يزن أو عنترة بن شداد، يصدر أثناء دخوله المعركة الأصوات ويرفع السلاح ليعطي أجواء الحدث، وإذا تحدث عن قصص ومآسٍ، يعطي الجانب النفساني والحزين من خلال الصوت. في العصر الحديث، كان "الحكواتي" يلقى حضوراً مميزاً خلال شهر رمضان المبارك وتحديداً في المقاهي الشعبية، لا سيما مقاهي عسور في وسط بيروت، ولاحقاً في مقاهي البسطة، ومن ثم في عدد من مقاهي المناطق الشعبية . فبعد صلاة التراويح يعج المقهى بالرواد الذين يدهشهم هذا النوع من التراث الشعبي، وهنا يظهر "الحكواتي" بزيه التقليدي المعروف والمؤلف من السروال والتسرة المطرزة على الطريقة الشامية واضعاً الحزام التقليدي العريض، وعلى رأسه الطربوش، ويتخذ مكانه على كرسيه في صدر المقهى وبيده سيف طويل، ويستهل بالصلاة على النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم، فيسود الصمت، وتتجه الأنظار نحوه، ثم يبدأ حكايته أو فصلاً منها، مستخدماً كل مهاراته في الإلقاء، وتقمص الشخصية ورفع الصوت أو خفضه، محركاً يديه بما يعبر عن الحدث، وأحياناً يرفع السيف ويهوي به على الطاولة عندما يكون مشهد الحكاية معركة حربية. ولا يوفر قدميه، فهو يضرب بهما الأرض بما يتناسب مع صيرورة الحكاية التي يرويها، مما يزيد من تشويق الحاضرين، وشد انتباههم. فالحكواتي يتحكم بالسيناريو، وهو الممثل والمخرج والمنتج معاً، وهو الذي كثيراً ما يخرج عن النص، ليداعب الجمهور بحوارات جانبية.



السيد عماد الوزان رحمه الله. آخر حكواتي عرفته بيروت

يتبين مما تقدّم أن دور الحكواتي الإجتماعي قديماً تعّدى كونه راوي قصص وحكايات فقط. ويمكن وصفه في عرف الحاضر بوزير إعلام أو وزير ثقافة، وهو يتولى سياسياً، ولو بشكل غير مباشر، مهمة التحريض. ويبدو أن معظم، إن لم يكن كلّ الذين كتبوا عنه، إنما أخذوا الناحية الشكلية لشخصيته (رجل يلبس الطربوش ويجلس على مقعد مرتفع يقوم بتسلية الناس!) وهذا تشبيه في غير محلّه لأن معظم الناس كانت تلبس الطرابيش وتجلس في المقاهي وتتحدث بأخبار وأقاصيص وأحوال الناس والبلد، خاصة في المقاهي. ويبدو أن كل من كتب عن أخبار الحكواتي قد فاته أن التركيز الأساسي لهذا الشخص كان التراث المعنوي بالدرجة الأولى.



الحكواتي السوري الشهير أحمد اللحام في أحد مقاهي دمشق

في دردشة لي مع الكاتب والصحفي الدكتور الياس عطروني قال إن ابتداء ظاهرة الحكواتي برزت في العصر المملوكي الذي كان الحكم فيه لغير العرب (شركس وتركمان وغيرهم) وكان تركيز الحكواتي على التراث العربي وكأنه باللاوعي وبصورة غير مباشرة أخذ على عاتقه الإتجاه العروبي من خلال سرده لأقاصيصه. وبما أن إحتكاك الرأي العام في في ذلك الوقت كان مباشرة مع هذه الشخصية، يمكن القول أنه كان له دور سياسي يتخلله طابع التحريض كما أشرت، خاصة خلال العصر العباسي الثالث مع بداية إنهيار الخلافة، وبداية تسلل الأيدي الأجنبية إلى المجتمعات العربية بشكل واضح ومؤثّر، فكانت عملية التركيز على الشخصيات العربية من خلال الإضاءة على التراث أشبه بردّة فعل غير مباشرة.

هذه الشخصية تم مسحها في الأعمال المكتوبة، مثلها مثل كثير من الشخصيات البيروتية كأبو العبد البيروتي على سبيل المثال، وكثير من قبضايات بيروت بشكل لا يمت بصلة إلى عادات وتقاليد مجتمعنا وتراثنا بشكل عام.

سهيل منيمنة

SRMpharm@gmail.com

20/02/2025



BCOM ARTS@behance.net